

النظريات المفسرة لظاهرة العنف ضد المرأة

أ.الحاج يوسف مليكة

جامعة الجلفة

تمهيد:

يعتبر البحث الاجتماعي أحد آليات النظريات الاجتماعية التي بواسطتها نستطيع أن نبرهن على أحد أهدافها كما أن لهذه الأخيرة نفس الأهمية بالنسبة للبحث، إذ تُحدد للباحث أساس الاختيار الذي يستند إليه في انتقائه لوقائع معينة، أو لجوانب تستوجب الدراسة.

" فالباحث قبل الشروع في بحثه يتعين عليه أن يسترشد بأفكار أو نظريات قائمة حول طبيعة الظاهرة التي يريد استجلاء حقيقتها " (1). بمعنى أنه يتعين على النظرية أن تكون متوافقة مع الوقائع " فبمقدار دقة النظرية و انضباطها يكون بلوغ الأهداف البحثية... ما يجب ملاحظته. و أن هذا التوجيه تسهم فيه النظرية العلمية " (2). فالملاحظة العلمية بحاجة إلى ما يوجهها .

إذن و بالاستناد إلى هذه العلاقة الديناميكية و المستمرة بين النظرية و الواقع يمكن القول بأن النظرية ليست عالما مغلقا على ذاته، أو أنها بمثابة تفكير فلسفي، و إنما هي تشير إلى تلك العلاقات المتبادلة بين الوقائع لأنها " تقوم بتنشيط البحث الاجتماعي و تفعيله أو تشجع بعض الباحثين على تجسيد فجوة حاصلة بينها و بين نظرية ثانية، و هذا ما

حصل فعلا عند " لويس كوزر " في نظريته « الوظيفية الإيجابية للصراع الاجتماعي الذي جسر بين النظرية الصراعية و البنائية الوظيفية » (3) .

و يقول " معن خليل عمر " في كتابه مناهج البحث في علم الاجتماع « أن النظرية تمارس تأثيرا ملزما على الباحث، و هو تحديد أو طرح المشكلات التي تحتاج إلى بحث ليس هذا فحسب بل تقود الباحث إلى التأكيد على قوة العلاقة بين المتغيرات ... و هكذا تتلاقى وتتفاعل النظرية مع البحث، لأن الحقيقة الميدانية لا يمكن استكشافها إلا بهذا السياق » (4) .

كما يعرف في هذا الصدد " روبرت ميرتون " (Robert Merton) النظرية في علم الاجتماع بأنها « مجموعة من التصورات المترابطة منطقيا، تلك التصورات المحددة و المتواضعة و ليست الشاملة المتضمنة كل شيء » (5). فهي إذن نظرية للمجتمع بأوسع معانيه و بكل ما يحدث في هذا المجتمع من ظواهر و نظم و أنساق، و ما يحدث من تفاعل و حركة ديناميكية في شبكة العلاقات الإنسانية، على سبيل المثال: العلاقات داخل الأسرة، العلاقات في إطار المجتمع العام، هل هي علاقات تعاون و تضامن و تفاهم أم هي على العكس، أي علاقة صراع و عنف بين الأفراد المتواجدين داخل الإطار الأسري الواحد؟.

و عليه فإننا في هذا المقام نحاول التطرق إلى بعض النظريات التي تفسر ظاهرة العنف ضد المرأة.

نحاول أو لا نتطرق إلى النظريات الاجتماعية و المتمثلة في نظرية التنشئة الاجتماعية ونظرية القاعلية الرمزية و النظرية البنائية الوظيفية و الاتجاه النسوي الراديكالي و نظرية الصراع. ثم بعد ذلك نتطرق إلى النظريات النفسية و تتمثل أساسا في نظرية العدوان ومدرسة التحليل النفسي و النظرية السلوكية. وفي الأخير نتطرق إلى النظريات الاقتصادية التي تفسر ظاهرة العنف ضد المرأة، وتتمثل في نظرية مصادر القوة و نظرية الضغط المادي.

أولا- النظريات الاجتماعية:

1- نظرية التنشئة الاجتماعية:

سنستعين بنظريات اجتماعية كنظرية التنشئة الاجتماعية، على اعتبار أن الأسرة هي أول مؤسسة اجتماعية تربية يتكون فيها الفرد، لنحاول معرفة مدى قيام الأسرة بدورها في توجيه سلوك الفرد، و تأثير نظرتها إلى المرأة ككائن يستوجب متابعته و السيطرة عليه. و وفقا لهذا التفسير فإن هذا السلوك لدى الإنسان هو مكتسب و ليس وراثيا أو فطريا كما يرى أصحاب الاتجاه البيولوجي، و أن العنف و السلوك العدائي بمختلف أنماطه يتم تعلمه و اكتسابه من طرف الإنسان نتيجة احتكاكه بمجتمعه و أفراد جماعته ⁽⁶⁾ . فالعنف سلوك من الممكن تعلمه أو تقليده و ملاحظته من البيئة المحيطة.

إذ تعتبر عملية التنشئة الاجتماعية عملية دمج الأفراد في المجتمع، و ذلك من خلال غرس القيم و التقاليد و المعايير الاجتماعية، و جميع الرموز الثقافية في النظام الاجتماعي و من خلال هذه العملية يتم تحفيز

طاقة الفرد للمماثلة، و خلق الرغبة عنده للتماثل مع القواعد الاجتماعية و تساعده أيضا على ترابطها مع بقية المهارات الأخرى لكي يمارس دوره الاجتماعي⁽⁷⁾ .

و العنف ضد المرأة حسب نظرية التنشئة الاجتماعية يكون من خلال عملية تشريب الذكر ثقافة مجتمعه و إضفاء نوع من الشرعية في ممارسته للعنف ضد الأنثى ويتم ذلك من خلال التصورات التي تقدمها التنشئة الاجتماعية عن العنف كأسلوب ناجح في التعامل مع المرأة و عن علاقة الرجل بالمرأة هذه العلاقة التي تقوم على تكريس مفهوم السلطة الذكورية و تبعية المرأة لهذا الأخير و التي تلي عليها الخضوع له (علاقة تابع بالمتبوع) ثم من خلال الأساليب التربوية التي تقترحها للتعامل مع البنت و التي تقوم على أساس استخدام العقاب لغرض تربية و تأديب الفتاة، إذ تبدأ بؤادر التمييز بين الجنسين منذ الولادة ، بحيث يكرس التمييز لحظة معرفة جنس المولود من خلال الأعضاء الخارجية " أنثى " أم " ذكر " و يتزايد هذا التمييز بتزايد المراحل العمرية عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية، بفصل العالمين و مدهما بقيم مختلفة فيزداد تمثيل كل جنس في وعي الآخر عن طريق إنتاج مجموعة من الأفكار النمطية والتي تجعل المرأة دائما في الوضع الأدنى الأقل الأضعف السالب الخاضع، إلخ. بينما على عكس ذلك تجعل الرجل في الوضع الأعلى الأقوى الإيجابي المسيطر... إلخ.

فالمرأة كائن اجتماعي مثله كمثل الكائنات الاجتماعية الأخرى تخضع بصفة مستمرة لعملية التنشئة الاجتماعية وفق القيم الثقافية و الاجتماعية للمجتمع، فهي منذ صغرها تلقن فن الخضوع للرجل. أي دائما تعمل

الأسر إلى تعليم المرأة أن تكون سلبية خاضعة، راضية مهمتها الأساسية أن ترعى شؤون زوجها و أولادها و أخواتها، و تتقبل أخطاءهم فلا يوجد من يشجعها على أن تكون مسؤولة عن حياتها ، كما لا ننسى دور المجتمع في تلقين المرأة بأن تكون دائما هي الضحية الأولى لأجل الحفاظ على علاقتها الزوجية و أسرتها. و في هذا الصدد تقول " مادلين بيليتيه M. Pelletier " « الأسرة هي المكان الذي تنشأ فيه و تنمو السيطرة المادية و الإيديولوجية، سيطرة الأعراف و الأحكام المسبقة لدى الرجال عن المرأة» (8). بمعنى أن مشاعر التمييز بين الذكر و الأنثى لا تولد مع المرء و لكنه يتشربها خلال عملية التنشئة الاجتماعية، فالمرأة منذ صغرها تتعرض لعملية التنشئة الاجتماعية بصورة تختلف لما يتعرض له الذكر وهذا الاختلاف يشير بصورة واضحة لوجود نوع من العنف ضد المرأة داخل إطار الأسرة و يتضح أكثر فأكثر حينما يكون من حقّ الذكر أن يُقرّر ما يريد، ويدّعي ذلك على الأنثى و حينما يكون من الضروري للذكر أن يتعلم و ليس ضروريا بالنسبة للأنثى فهذا ما يحدث خاصة في المناطق الريفية.

وبالتالي التنشئة الاجتماعية إذن هي التي تحدد طبيعة العلاقات الأسرية (العلاقة بين الذكر والأنثى)، وقد تكون إما علاقة إتفاق أو علاقة تبعية و تسلط، أي تبعية المرأة للرجل و إن الاختلاف في التنشئة الاجتماعية (التمييز بين الجنسين) يؤدي إلى خلق رجل يتسم بالعدوانية و الاستقلالية و الإيجابية في حين يجعل المرأة أكثر ميلا إلى التبعية و الإتكالية لأنه من خلال التنشئة تتحدد مكانة الأفراد. فهي عملية نفسية و اجتماعية في آن واحد تمكن الفرد من تشكيل شخصيته

الاجتماعية داخل النطاق العام و الخاص ، بمعنى أن الثقافة المجتمعية تغرس و تؤثر في الشخصية الفردية، لأنها تُعتبر نسق من العمليات التي يتم بموجبها تمثل واستبطان الفرد للعناصر الثقافية و الاجتماعية من الوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه ، فتصبح بذلك تشكل جزءا لا يتجزأ من شخصيته.

وتكمن الوظيفة الأساسية للتنشئة الاجتماعية في تنمية الجانب الاجتماعي لدى الفرد و يقول عنها " غي روشيه" في كتابه مدخل إلى علم الاجتماع بأنه»اكتساب الطرق في السلوك و التفكير و الشعور...»⁽⁹⁾. فهذه العملية هي سيرورة تتصف بالدوام و الاستمرار حيث تصاحب الفرد منذ طفولته حتى كبره، إلا أنها تكون أشد كثافة في مرحلة الطفولة و خاصة المبكرة منها، عندما يفضل الذكر عن الأنثى، ثم تنتقل هذه الميزة و التفضيل في مراحل عمر الذكر الأخرى باعتباره أنه قد كون رصيذا كبيرا من القيم و المعايير و المواقف و الخبرات، و غيرها من أنماط التفكير الأساسية التي يوظفها في علاقاته الاجتماعية خاصة علاقة الرجل بالمرأة القائمة على أساس التسلط و السيطرة داخل المجال الأسري أو خارجه.

و لقد برزت الملامح الأساسية للعنف في إطار التنشئة الاجتماعية في أعمال " دوركايم" و ذلك « في وصف عملية التربية التي يتم عن طريقها الكائن الإنساني الانتقال من حالته البيولوجية إلى الحالة الاجتماعية الثقافية و تكون فيه الذات الاجتماعية، و لا تسعى التربية إلى تحديد مكانة الإنسان على نحو ما حددته الطبيعة، بل الإنسان على غرار ما يريده المجتمع»⁽¹⁰⁾. و ذلك عن طريق سلسلة من

الأفكار و نسق من العادات و التقاليد و المعايير الاجتماعية التي يكتسبها الفرد من خلال ما يمليه له المجتمع الذي يعيش فيه معناه حسب "دوركايم" هناك تقييد لحرية الفرد.

و هكذا فإن طرق المعاملة و التنشئة التي يتلقاها الجنسان تكون مختلفة تماماً، بحيث ما يتلقاه الذكر في هذا المجتمع غير ما تتلقاه الأنثى. بالنسبة للذكر فهو يربي على التأكيد بالذات من خلال إبراز القوة، بينما الأنثى تربي على الصمت و الممنوع، و عدم استطاعتها اتخاذ القرارات بنفسها، و هي تابعة للرجل و يجب عليها أن تطيع القوانين و القواعد و المعايير الاجتماعية المختلفة اعتماداً على سلطة الرجل.

2- نظرية التعلم الاجتماعي:

و ينظر أصحاب هذه النظرية لسلوك العنف على أساس يمكن تعلمه من خلال عملية التفاعل فهناك الكثير من الدلائل التي تؤكد على أن سلوك العنف يتم تعلمه من خلال عملية التنشئة الاجتماعية Socialisation التي تقوم بها الأسرة. « فالإنسان قد يتعلم سلوك العنف بطريقة مباشرة عن طريق المثل أو القدوة التي يقدمها أعضاء الأسرة و هي في ذلك تشبه النظرية السلوكية »⁽¹¹⁾.

كما أن الإنسان، كما يقول " عبد الرحمان العيسوي " يتعلم هذا السلوك، و يتعلم كيف وأين ومع من يمارسه؟ أي أنه يتعلم و يكتسب من خلال خبرته و تجاربه في الحياة الأوقات والظروف و المواقف التي تؤدي إلى ظهور هذا السلوك⁽¹²⁾.

وتركز هذه النظرية على فرضيات أساسية هي أولاً أن العنف يتم تعلمه من خلال تقليد سلوك الآخرين أو مشاهدته أو التعرض له وأيضاً يتأثر بالعقاب و الثواب الذي يتوقعه الفرد⁽¹³⁾.

ويؤكد أصحاب هذه النظرية على أن العنف هو سلوك متعلم يتعلمه الفرد من خلال الخبرة المباشرة أو من ملاحظة سلوك الآخرين، وأن هناك علاقة وثيقة بين العنف في الأسرة والعنف ضد المرأة، وهذا يعني أن الإنسان يتعلم الكثير من أنماط سلوكه من خلال ملاحظة وتقليد سلوك الآخرين، فالأطفال الذين يشاهدون العنف بين الوالدين قد يقلدونه إلى حد كبير خاصة عندما يرتكب هذا السلوك الأب الذي يعد سلوكه نموذجاً يقتدي به الأطفال، أي أنه إذا شاهد الطفل والده يأمر فيطاع و يحظى برعاية الآخرين داخل الأسرة من خلال إستخدام القوة أو التهديد بالعنف فمن المحتمل أن يدرك أن هذا السلوك يجعله يحصل على ما يريد وبالتالي فإن الطفل سوف يقلد سلوك والده في علاقاته مع زوجته في الرشد.

3 - النظرية البنائية الوظيفية :

تم كذلك في هذه الدراسة الاستعانة ببعض مبادئ النظرية البنائية الوظيفية التي ترى أن البناء الاجتماعي هو عبارة عن نسق كلي مترابط و متماسك، و هو بدوره مكون من مجموعة أنساق جزئية تربطها علاقات متبادلة، و لكل من هذه الأنساق دور و وظيفة و أي خلل يصيب أداء أي عضو يؤدي إلى حدوث خلل في النسق و البناء الكلي من حيث تركيبته الوظيفية⁽¹⁴⁾ . فهي تفسر الظواهر الاجتماعية من خلال المؤسسات الاجتماعية حيث أن تماسك و انسجام هذه الأخيرة

فيما بينها يحسن من أدائها الوظيفي، و ترى هذه النظرية أن كل نسق يقوم بدوره و عملياته الاجتماعية على ضوء بنائه الداخلي الذي يوجد فيه سواء كان بنية مادية أو بنية اجتماعية (15) .

تعزو هذه النظرية العنف ضد المرأة إلى وجود صعوبات في العلاقات الأسرية و أن السلوك العنيف يحدث بسبب أنماط التفاعل الأسري غير التوافقية أو المختلة وظيفيا، أو نتيجة لوجود خلل في البناء الأسري و سوء التفاعل بين الزوجين. و يشير أصحاب هذه النظرية إلى أن الخلل الوظيفي في الأسرة و الذي يتمثل في الضواغط و المشاكل بين الزوجين تعتبر محددات هامة في تفشي العنف ضد الزوجة و بالتالي يمثل العنف طبقا لهذه النظرية هو نتيجة للاختلال الوظيفي داخل النسق الأسري، و أن كل أعضاء الأسرة يسهمون في حدوث العنف إذ أن كل من الزوجين يسهمون في تصاعد الصراع وأن كل واحد منهما يسعى للسيطرة على الآخر، و على هذا فإن العنف ضد المرأة يكون ناتجا عن وجود خلل في تفاعلات الأسرة ووجود نقص في التواصل بين أفراد الأسرة.

ومن رواد هذا النظرية نجد كل من "تالكوت بارسونز و روبرت ميرتون" إذ يقول " روبرت ميرتون Robert Merton " « إن السلوك الاجتماعي سواء كان أخلاقيا أو غير أخلاقي مشروعا أو غير مشروع ، يمكن أن يُفهم فقط في ضوء القيم التي تعطى للسلوك معناه و أن المعاني لا تكمن في طبيعة الأشياء و لكن ما تضيفها على تلك الأشياء ثقافة الجماعات المعيارية المرجعية » (16) .

بمعنى أن السلوك الفردي يتم في ضوء المعايير الاجتماعية السائدة في الأسرة خاصة و المجتمع عامة ، بحيث تكتسب بعض أنماط السلوك

داخل الأسرة صفة الشرعية و البعض الآخر صفة العنف، و بعبارة أوضح السلطة الأبوية داخل الأسرة تعمل على تنظيم أفراد الأسرة ، فهي بذلك تكتسي صفة الشرعية لكن من جهة أخرى إن كانت سلطة أبوية ديكتاتورية غير مبنية على الحوار تكون بذلك مصدر للعنف القائم على الأسرة و خاصة على المرأة والأطفال كما يؤكد لنا روبرت ميرتون على مدى ارتباط العنف بعدم تحقيق الأهداف الثقافية من خلال الوسائل التي يقرها المجتمع (17) .

وقد تأكدت صحة أطروحات بارسونز فيما يخص قيمة و أهمية التوازن داخل النسق الاجتماعي، حيث كلما كان النسق الاجتماعي متوازنا كلما كانت فرصة الانحراف و انتشار السلوك العنيف و العدوانى ضئيلة، فالإستقرار يعني التفاهم و اللجوء إلى لغة الحوار بدل لغة الإصطدام و التعنيف (18).

وفي ضوء ما سبق يمكن القول أن الخلل في أنماط التفاعل الزوجي يؤدي إلى العنف و ليس هيمنة الرجل على المرأة هي السبب الحقيقي في حدوث العنف كما تذهب إليه النظرية النسوية الراديكالية، أي أن هذه النظرية تساوي بين الرجل و المرأة في تحمل المسؤولية عن العنف ومن ثم لا بد من تحسين التواصل ومهارات حل وفك الصراعات بين أعضاء الأسرة، إلا أن في أغلب الأحيان يكون العنف جزء من نمط الإستراتيجيات الذي يستخدمها الأزواج في حل الصراعات الزوجية.

وعلى هذا النحو، يعتبر المجتمع تنظيماً أو بناءً، فكلما كان هذا البناء متماسكاً و متظاماً قلت فيه الظواهر الاجتماعية المرضية ، وكلما اتجه البناء الاجتماعي إلى حالة من الانهيار و التفكك كلما ظهرت و نمت

فيه الظواهر السلبية (ظاهرة العنف ضد المرأة) و هذه الحالة تولد تفكك الروابط و العلاقات الاجتماعية بين الأفراد (علاقة الزوج مع الزوجة علاقة الأب مع البنت علاقة الأخ مع الأخت ...إلخ).

4- نظرية الصراع:

تعد الأسرة في ضوء هذه النظرية بمثابة تنظيم اجتماعي يحقق فائدة لبعض الناس أكثر من غيرهم حيث نظر كل من " كارل ماركس و إنجلز " إلى الأسرة باعتبارها مجتمع طبقي مصغر تقوم فيه طبقة الرجال بقمع طبقة أخرى و هي النساء " فالزواج هو أشكال الصدام الطبقي حيث يتم فيه تأسيس سعادة طبقة على بؤس و قمع الطبقة الأخرى " (19) .

و يتم تفسير العنف في ضوء هذه النظرية في إطار مفاهيم و مصطلحات السيطرة و الضبط فالرجال أكثر قوة من النساء، و من هنا فهم يفرضون سيطرتهم على النساء، كما أن المراهقين أكثر قوة من الأطفال و من ثم فهم يمكنهم فرض سيطرتهم على الأطفال.

كما أن العلاقات الحميمة في الأسرة بين الزوج و الزوجة تتطلب بالضرورة نوعا من العداوة بمثل ما تشتمل على الحب و المودة . إذ يرى في هذا الصدد عالم الاجتماع " سبراي J.Sprey" « أن الصراع يعد جانبا و جزءا مكونا في كل الأنساق و التفاعلات بما في ذلك الأسرة و التفاعلات الزوجية و يمكن النظر إلى أعضاء الأسرة باعتبارهم يواجهون نوعا من المتطلبات المتعارضة، فهناك التنافس مع بعضهم البعض من أجل الاستغلال و السلطة و الامتيازات، و في نفس الوقت

المشاركة مع بعضهم البعض من أجل البقاء فالأسرة في ضوء هذه النظرية تعد نظاما اجتماعيا يعمل على تقنين العلاقات الشخصية المتبادلة و الوثيقة من خلال عمليات مستمرة من التعارض و حل المشكلات و إدارة الصراع⁽²⁰⁾. و يشير "كانط Kant" إلى نفس المعنى : « أن حالة السلم السائدة بين الأفراد الذين يعيشون معا ليست هي حالة طبيعية »⁽²¹⁾.

كما يركز أصحاب هذه النظرية على العمليات الداخلية للأسرة ، فوحدة الدراسة فيه هي العلاقات الديناميكية بين الزوج و الزوجة وفقا لأنماط السلوك و عمليات التوافق، لذلك فإن وحدة الدراسة هي العلاقة الثنائية ، أي العلاقة بين شخصين أو علاقات ثلاثية و بما أن هذا الاتجاه يدرس الأسرة باعتبارها وحدة من الشخصيات المتفاعلة « فهو يركز عند دراسته للعنف الأسري على العلاقات السلبية و مظاهر العنف بين الزوج و الزوجة و بين الأخ و الأخت ... إلخ، و مظاهر الاتصال الرمزي السلبي مع أفراد الأسرة الواحدة »⁽²²⁾ .

5 - النظرية النسوية الراديكالية :

إن نقطة البداية في هذه النظرية هي علاقة الرجل بالمرأة، بحيث أن تفسير تبعية المرأة يجب أن تكون في ضوء العلاقة التي تؤكد سيطرة الرجل على المرأة ، وأن الأسرة تتشكل بناءا على أوامر أبوية ومن ممثلي هذه النظرية الراديكالية في دراسة الأسرة نجد « دلفي » عام 1977 التي ترى : « أن الأبوة نسق من العلاقات المادية الاقتصادية»، و « جرير » عام 1971 التي ترى : « أن الأبوة تتمثل في عدم المساواة بين الرجل و المرأة »⁽²³⁾.

وأصحاب النظرية النسوية الراديكالية يؤكدون على قضية هامة مؤداها « أن الرجال يلجؤون للعنف مع زوجاتهم للمحافظة على وضعهم، و تأكيد هيمنتهم فالعنف ما هو إلا استعراض لما يتمتع به الرجال من قوة و سلطة و مكانة تفوق ما يتمتع به النساء » (24).

وجملة القول طبقاً لهذه النظرية يكون العنف في العلاقات الحميمة بمثابة مرآة تعكس النظام الأبوي في المجتمع الذي من خلاله يلعب الرجل دور الهيمنة و السيطرة على المرأة وأن العنف هو وسيلة لبقاء و استمرار قوة الرجل في الأسرة، إذ أن الرجل عندما يشعر بأن هيمنته و سيطرته تكون مهددة داخل الأسرة فإنه يلجأ إلى العنف ليستعيد هيمنته على المرأة كما أن الأدوار الإقتصادية تركت المرأة تعتمد على الرجل و أن تكون غير قادرة على الهروب من المواقف المؤذية أو العلاقة العنيفة، فالقوة الجسمية المتفوقة لدى الرجل تمكنه من الهيمنة على النساء من خلال العنف، كما أن المؤسسات الثقافية و الإجتماعية تعطي الرجل التقدير و القوة و تدعم ثقافة الذكورة و ذلك هو ما يدفع به إلى العنف ضد الزوجة و في هذه ضوء النظرية يشعر المعتدي أنه هو المسؤول عن الأسرة و إتخاذ القرارات بها و أن الأطفال و المرأة حينما يكونون غير مطيعين يتعرضون للعنف، فالرجل المعتدي عندما يشعر أنه لا يطاع ولا تحترم أوامره يشتد غيظه ، وهكذا يعتبر أنصار هذه النظرية أن القوة و التحكم في العلاقة بين الرجل و المرأة تسهم في العنف ضد المرأة، فالعنف هنا هو أحد الأساليب التي يستخدمها الزوج في الإبقاء على القوة و السلطة داخل الأسرة، وهذا هو الأصل في إساءة معاملة المرأة.

ثانيًا النظريات النفسية المفسرة للعنف:

لقد حاول عدد كبير من النين اهتماموا بدراسة أشكال العنف تفسير أسبابه، و البحث عن العوامل الظاهرة و المختفية التي هي وراء هذا الإشكال، و نتج عن هذه المحاولات عدد كبير من النظريات، و تختلف هذه الأخيرة حسب إتجاهها العلمي.

وسنحاول من خلال هذا المطلب عرض بعض النظريات النفسية التي تفسر ظاهرة العنف و في هذا الإطار نجد أنفسنا أمام مصطلح " العدوان " لأن النظريات النفسية المفسرة للعنف، تهتم أو لا بتفسير العدوان، بمعنى آخر العنف في علم النفس يقابله السلوك العدواني لذلك سنتعرض إلى بعض الاجتهادات النظرية ذات وجهات نظر مختلفة يمكن الاستفادة منها لتوجيه دراستنا. بحيث ترى هذه النظريات « أن جذور كل مظاهر العنف الملاحظة في الزمن الحاضر لا يجب أن نبحث عنها في المجال الاقتصادي المادي، و لا في ظروف الحياة الاجتماعية، و لكن في عالم النفس الفردي، و في العالم الداخلي الذاتي للشخصية، و هكذا فإن مشكلة العنف في الظروف المعاصرة لا تبدو كمشكلة اجتماعية و لكن مشكلة نفسية »⁽²⁵⁾.

1- نظرية الإحباط:

صاغ هذه النظرية في الأصل Dollard و هي تشير إلى أن السلوك العدواني لدى الفرد ينتج عندما يوجد عائق دون وصول الفرد إلى النشاط الهادف له، فالكائن العضوي يميل إلى العدوان نحو الأشياء التي تعوقه عن تحقيق الأهداف الهامة لديه أو يستبدل موضوع العدوان بموضوع

آخر آمن وهذا يعني طبقا لهذه النظرية أن الإحباط يؤدي إلى العدوان وأن الإنسان ليس عنيفا بطبعه، وإنما يصبح كذلك نتيجة للإحباط وأن العنف ينشأ كلما إعترض الإنسان عائق يحول بينه وبين تحقيق رغباته و التعبير عن إنفعالاته ومن ثم كان لا بد كمن التنفيس عن هذه الإنفعالات و المشاعر ويتم ذلك عن طريق الإزاحة حيث تتحول الإنفعالات و المشاعر المؤلمة من الموضوع الأصلي إلى موضوع آخر بديل كالموظف الذي لا يستطيع أن يرد على إهانات رئيسه في العمل فإذا به يصيب جام غضبه و عنفه على زوجته وقد يتجه العدوان نحو الأشياء المادية مثل تحطيم الأواني أو الأثاث.

ولكن الإحباط ليس بالضرورة يؤدي إلى العنف إلا إذا كان العنف الصادر عن الفرد يلقي شيئا من الإثابة و التدعيم من الآخرين، فكثير من الناس تتعرض لمواقف إحباطية لكنهم لا يستجيبون بشكل عنيف، وقد يعود هذا إلى طبيعة الموقف أو الشخص ذاته وعلى هذا يؤدي الإحباط إلى ظهور أنواع أخرى من السلوك مثل الإنسحاب أو تعاطي المخدرات وليس بالضرورة إلى العنف.

و طبقا لنظرية الإحباط، فإن عدوان الإحباط يتركز على قوة الحاجات و البواعث التي تعترض المواقف المتعددة، و إن درجة العنف و العدوان ترتبط بمقدار الإحباط، و قد يكون فقرا أو نقصا في العاطفة أو ضررا (26).

و منه القول أن " دولارد Dollard " قد ربط بين العنف و شعور الشخص بالإحباط نتيجة لعدم تمكنه من تلبية رغباته، و شعوره بالفشل، و نتيجة توفر عوامل مساعدة لذلك و التي تدفع الشخص إلى استخراج

غريزة العنف التي تكون مكبوتة في داخله و ذلك قصد التنفيس و الترويح عن نفسه، كذلك " ألفرد أدلر A. Adler " يرد العنف إلى شعور الشخص بالإحباط و الفشل في تحقيق حاجاته⁽²⁷⁾.

و يقول " Zastrow " : « إن المشكلة الكبرى في هذه النظرية هي أنها توضح لماذا يؤدي الإحباط إلى العنف عند الناس في بعض المواقف، إلا أنها تعجز عن توضيح لماذا لا يؤدي الإحباط إلى العنف عند الآخرين من الناس و في ولفف أخرى ، هذا بالإضافة إلى أن كثير من مظاهر العنف لا ترتبط بالإحباط، فالقاتل المحترف مثلا لا يكون في حالة إحباط حينما يرتكب جريمته⁽²⁸⁾.

فهذه النظرية تفترض أن النزعة إلى الإستجابة بشكل عدواني هي إستجابة على المواقف الإحباطية التي يتعرض لها الفرد، وعلى الرغم من أن نظرية الإحباط العدواني تبدو صادقة إلا أنه توجد بعض المشكلات الرئيسية المرتبطة بها وهي أنها لا تفسر تحت أي ظروف من الإحباط يكون العدوان فضلا عن أن الإحباط في بعض المجتمعات قد يكون متبوعا بانسحاب سلبي وأن هذه النظرية لا تفرق بين العدوان الجسدي و الإساءة اللفظية.

2- مدرسة التحليل النفسي:

مما لا شك فيه، أنه عند ذكر مدرسة التحليل النفسي، لابد من الإشارة إلى "فرويد Freud" فهو الذي وضع أسس هذه المدرسة، و يكون العدوان أحد أهم جوانب نظريته العامة لتفسير السلوك البشري و لأنه تأثر كثيرا بالنظريات التي كانت تسيطر على التفكير العلمي في عصره

فكانت الداروينية بارزة في أعماله، بحيث جعل " فرويد " العوامل البيولوجية الوراثية في شكل سيطرة الغرائز و الدوافع و الحاجات، فالإنسان مثل الحيوان تسيطر عليه بعض الغرائز الفطرية تدفعه إلى أن يسلك سلوكا بشكل معين إلى أن يشبع تلك الغرائز و من هذه الغرائز غريزة العدوان التي تدفع الإنسان إلى الإعتداء فالعنف سلوك غريزي هدفه تصريف الطاقة العدائية « فالفرد في نظر فرويد Freud مزود بطاقة هائلة توجه للهدم والدمار و إنه في حالة كبتها تظهر في صورة عدوان خارجي »⁽²⁹⁾.

يرى إدغار موران Edgar-morin : « أن الحضارة المعاصرة تعرف أزمة عنيفة تؤدي إلى تكثيف لم يسبق له مثيل لمظاهر الغرائز الطبيعية الإنسانية و لتعقيد الأوضاع النفسية »⁽³⁰⁾.

وهكذا يعود سبب العنف ضد المرأة إلى مرض نفسي يعانيه المعنف (الرجل) الذي نشأ بفضل عقد و مكبوتات ، ونمت بعد ذلك، و أصبحت تظهر في شكل لوكات عدوانية يمارسها ضد المرأة ويجعل الضرب و العنف سلاحه الوحيد في التعامل مع المرأة (الزوجة).

وعلى هذا الأساس تفترض هذه النظرية أن العنف ضد المرأة يصدر عن الأفراد المضطربين نفسيا أو لديهم اضطراب في الشخصية ، فهناك دراسات عدة ركزت على الخصائص النفسية التي يتصف بها الممارسين للعنف تسهم في إستعداداتهم للعنف الأسري مثل عدم الكفاءة و الشعور بالوحدة و انخفاض تقدير الذات ونقص مهارات حل المشكلات و أن هؤلاء الرجال المعتدين تظهر لديهم أعراض إكتئابية و العنف هو أحد الأساليب التي يستخدمونها في التقليل من الشعور

بالإكتئاب لديهم. و هكذا ترى هذه النظرية أن العنف ضد المرأة يرتبط بالخصائص الفردية للرجل العنيف، و أن العنف يصدر عن أشخاص يعانون من اضطرابات في الشخصية ومن أمراض نفسية.

تتمثل جوانب القوة في نظرية التحليل النفسي بأنها تقدم تفسيراً واضحاً للعنف بحيث يصبح العنف استجابة طبيعية كغيرها من الإستجابات الطبيعية للفرد. فيتفق أدلر مع فرويد في كون العدوان غريزة فطرية، و لكنه يختلف معه من ناحية استقلالها التام عن غريزة الجنس و سماها " إرادة القوة " أين يمثل القوة بالذكورية و الضعف بالأنوثة، ثم تخلى بعد ذلك عن إرادة القوة مفضلاً عنها مفهوم " الكفاح في سبيل التفوق " و اعتبر الهدف النهائي للإنسان أن يكون عدوانياً و أن يكون قوياً متفوقاً.

فالعُدوان كما يقول كورسيني Corsini و زميله « هو مفهوم مركب و معقد و هو متعدد الأسباب و من الصعب التنبؤ بحدوثه أو التحكم فيه و لكن مما لا شك فيه أن معرفة أسبابه تؤدي إلى التحكم عن طريق إزالة هذه الأسباب »⁽³¹⁾.

3- النظرية السلوكية:

يركز أصحاب النظرية على أهمية إيجاد علاقة بين الموقف كمثير و بين إستجابة الفرد و لذا يطلق عليها نظريات م - س أي النظريات التي تعني بالتعلم القائم على وجود المثير و الاستجابة⁽³²⁾.

ووفقاً لهذه النظرية، فإن ملاحظة الطفل للنموذج المقتدى به (الأب أو الأم) ورؤية الطفل لهذا النموذج العدواني خاصة الأب و إنه يحقق

مكاسب من وراء عنفه ضد زوجته كالسيطرة مثلا فإن الطفل يتعلم أن العنف ضد الآخرين ومنهم الزوجة - فيما بعد- هو وسيلة فعالة للحصول على مكاسب وفرض السيطرة والشعور بالقوة. ويشعر الطفل أن العنف يكون أحيانا أسلوب ضروري وفعال في الحياة والعلاقات الحالية واللاحقة. كما أن رؤية الطفل للعنف داخل العلاقة الزوجية بين الوالدين، قد لا يجعل الطفل فقط عنيفا ضد الآخرين و لكنها تهيئ الطفل للسلوك الجامح فيما بعد. وقد يكون الإعتداء على الآخرين هو شكلا من أشكال السلوك المضاد للمجتمع وقد لا يقتصر العنف على الزوجة ولكنه قد يكون أسلوب حياة و بالتالي فإن المجتمع بثقافته وأساليبه التربوية يلعب دور مهم في تعزيز الاتجاهات التي قد تخلق من المرأة كائنا ضعيفا ونموذج للضحية .

و من أنصار هذه النظرية " ثورندايك و بافلوف و سكينر و هل و جاثري و آخرون "يفسد السلوكيون العدوان وفقا لاتجاه مفاهيمهم التي يستخدمونها لتفسير السلوك ، فالسلوك العدواني عندهم سلوك متعلم عن طريق الإشرط و التعزيز، و هناك نوعين من الإشرط :

- الإشرط الإيجابي الذي بحث فيه الروسي بافلوف Pavlov، و يحدث فيه السلوك كإستجابة لمثير سابق ، فالفرد يصدر سلوكا عدوانيا كإستجابة لمثير سابق و هو تلقيه لإهانة مثلا.

- الإشرط الإجرائي بحث فيه السيكلوجي الأمريكي " سكينر Skinner الذي يؤكد على أنه يصدر السلوك كإجراء في البيئة فيحدث فيها تغيرات، و يتأثر بعد ذلك بما يعقبه، فإذا كان هناك تعزيزا زاد احتمال صدوره، أما إذا لم يعزز أو تعرض للعقاب فإن احتمال صدوره يتناقص.

ثالثاً - النظريات الاقتصادية المفسرة لظاهرة العنف:

إضافة إلى النظريات الاجتماعية والنفسية المفسرة لظاهرة العنف ضد المرأة توجد أيضاً نظريات اقتصادية تلمح في الأفق و تفسر ظاهرة العنف، و من أهمها نجد:

1 - نظرية الضغط المادي:

تقوم هذه النظرية على افتراض مؤداه أن الضغوط الحياتية تعمل بمثابة مثيرات خارجية تؤثر في بعض العمليات النفسية التي قد تدفع الشخص إلى القيام بالسلوك العدواني و تؤكد هذه النظرية في ضوء ذلك على وجود نوعين من هذه الضغوط و هما :

- النوع الأول: و يتلخّص في دور أحداث الحياة غير السارة و ضغوط العمل و الأدوار المختلفة كمثيرات قد تدفع إلى السلوك العدواني، فهناك دراسات أكدت على العلاقة المباشرة بين الضغوط الحياتية غير السارة و بين السلوك العنيف كما يبدو في ارتكاب جرائم العنف أما الدراسات الحديثة فلقد أكدت على الأثر السلبي للضغوط الحياتية غير السارة التي يتعرض لها الفرد و تؤدي به إلى ارتكاب جرائم العنف.

- أما النوع الثاني : فهو يهتم بالضغوط البيئية المتمثلة في الضوضاء، حيث تبين في الكثير من الدراسات في هذا الصدد أن الأفراد الذين يعيشون في الحضر و يتعرضون لضوضاء صاخبة يظهرون مستويات أعلى من العدوانية اتجاه الآخرين أكثر من الأفراد الذين لا يتعرضون للضوضاء فهذه الأخيرة إذن تعتبر نوعاً من الضغوط البيئية التي يستجيب لها الأفراد بالعدوان (العنف) .

كما يهتم النوع الثاني كذلك بالضغوط البيئية الأخرى كالازدحام السكاني و الاعتداء على الحيز المكاني، بحيث تؤدي هذه المؤثرات البيئية إلى زيادة معدل العدوان و العنف من خلال ما تحدثه من آثار نفسية أو سلوكية، ويتوقف ذلك على عدة مؤثرات حددها S.Maller فيمايلي :

- المؤثر الأول: مستوى إستثارة الشخص الواقع تحت تأثير الضغوط البيئية قد تعجل باحتمال ظهور العدوان لديه.
- المؤثر الثانيالإحباط الناتج عن هذه الضغوطات و عدم القدرة على ضبط السدّ لوك قد يدفع إلى العدوان.
- المؤثر الثالث: مدى شعور الفرد بعدم الارتياح و القلق قد يدفع إلى العدوان⁽³³⁾.

و هذه النظرية ترى أن الضغوط البيئية المختلفة سواء كانت ازدحاما أو ضوضاء أو ارتفاع درجة الحرارة أو التلوث و خلافه من ضغوط البيئة الفيزيائية، فهذه الضغوط إذا زادت على مقدار قدرة الإنسان على التحمل سوف تؤدي هذه الأخيرة إلى انفجار الإنسان و قيامه بأعمال العنف بمعنى أن الإنسان الذي يعيش في بيئة تعاني من مشكلات بيئية عديدة مثل إسكان المناطق العشوائية والمختلفة التي تعاني من الازدحام و سوء حالة المسكن و نقص الخدمات و المرافق ... فهذه البيئة تدفع الإنسان دفعا للقيام بالعنف، و من الطبيعي أن يواجه هذا العنف للضعفاء و في مقدمتهم النساء والأطفال.

و يمكن النظر لنظرية الضغط البيئي من منظور البيئة الاجتماعية و الاقتصادية بمعنى إذا زادت ضغوط البيئة الاجتماعية يؤدي ذلك لقيام الإنسان بالعنف، و يمثل ذلك مشكلات نقص الدخل والبطالة و الخلافات الزوجية ... فكل هذه المشكلات إذا توفرت تساعد على زيادة وجود العنف ضد المرأة و الطفل بوجه خاص، أي أن البيئة التي لا تشبع احتياجات أفرادها ينتج عنها شعور بالحرمان، لأنه بذلك لا يمكن للفرد (الرجل) تحقيق ذاته.

إذن السلوك الإنساني كله يفسر في ضوء وجود مثيرات تؤدي إلى إستجابات و من الأسباب التي تقال في تفسير العدوان كذلك الشعور بالحرمان⁽³⁴⁾ فقد يستهدف الإنسان من خلال عدوانه تحطيم الغير أو تدميره.

2 -نظرية مصادر القوة Resource Theory:

ولقد أعد هذه النظرية Goode (1971) وهي تركز على مفهوم القوة الذي يعني قدرة الشخص على التأثير في الشخص الآخر، أي القدرة على فرض إرادة شخص و سيطرته على الآخرين سواء بصورة مشروعة أو غير مشروعة معتمدا في ذلك على قدر كبير من القدرات الجسمية والنفسية و المادية، و لأن الرجل يحظى بأكبر قدر من القوة داخل الأسرة لذلك فهو يسيئ للزوجة و الأطفال داخل الأسرة، كما أن الرجال يستخدمون القوة حتى يتحكموا و يسيطروا على زوجاتهم وأطفالهم، أي أن العنف في الأسرة يظهر نتيجة لنقص المصادر فالشخص الذي تكون لديه مصادر كبيرة في العلاقة من قبيل (الدخل، الممتلكات، المكانة الاجتماعية، مصادر اقتصادية) فإن ذلك يجعله أكثر عنفا ضد الآخر،

أما الأفراد الذين يكون لديهم مصادر اقتصادية و اجتماعية و شخصية منخفضة و قليلة يكون عرضة للعنف⁽³⁵⁾.

وبعبارة أخرى أن الأشخاص الذين يمتلكون أكبر قدر من مصادر القوة هم الذين يفرضون إرادتهم على الآخرين الأقل قوة منهم، فهذه النظرية تؤكد على أن الفرد لديه تشكيلة من المصادر المتاحة التي تجعله يؤثر في الآخرين، و هذه تتضمن القوة الاقتصادية و المكانة الاجتماعية و الجاذبية الاجتماعية فالرجل في الأسرة هو الأقوى بينما المرأة و الأطفال هم الأضعف ومن ثم يكونون عرضة للعنف من طرف الرجل، وفي حالات العنف ضد الزوجة هناك تفاوت في القوة فالزوجة تصبح أكثر تعرضا للإساءة من قبل الزوج عندما لا تعمل ولا يكون لديها مصدرا مستقلا من الدخل أو عندما يكون مستواها التعليمي منخفضا عن الزوج.

وهكذا كلما قلت قوة الزوجة مقارنة بقوة زوجها كان احتمال تعرضها للعنف من الزوج أقوى ولكن كلما كانت العلاقة بين الزوجين أكثر مساواة كلما قل حدوث الإساءة بين الزوجين في الأسرة.

قائمة الهوامش:

(1) محمد د، علي محمد د. علم الاجتماع و المنهج العلمي . ط3، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية 1985، ص 76 .

(2) - عبد الباسط، عبد المعطي . البحث الاجتماعي : محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجيته و أبعاده . الإسكندرية: دار المعرفة 1987، ص 50.

(3) -نقلا عن معن، خليل عمر. مناهج البحث في علم الاجتماع. الأردن: دار الشروق للنشر و التوزيع، 1996، ص 46 .

(4) - نفس المرجع ، ص 47.

(5) نقلا عن ليلة، علي . النظرية الاجتماعية المعاصرة : دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع . ط2 القاهرة: دار المعارف 1983، ص 6 2

(6)- Albert, Bandoura. L'apprentissage social. Bruxelles : Pierre Marolago, 1973, p61.

(7)- معن ، خليل . نقد الفكر المعاصر . ط2 . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، 1991 ، ص 128

- Pelletier ,M . L'éducation féministe des filles , paris : sygros, 1978, p 16.
(8)

(9)- غي، روشيه . مدخل إلى علم الاجتماع . ترجمة : مصطفى دغشي ، ط1 ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، 1983 ص 165 .

(10)-Emile, Durkheim. Education et sociologie . paris : p.u.f , 1999 , p 51

(11)- طلعت، إبراهيم لطفي . التنشئة الاجتماعية و سلوك العنف عند الأطفال . الإسكندرية ، 1999 ص 192 .

(12) عبد الرّحمان، العيسوي " تفسير ظاهرة العدوان " . مجلة الأمن و الحياة ، العدد 614، يوليو 2000، ص 84.

(13)- عبد الحميد ، محمود السيد و آخرون . علم النفس الاجتماعي المعاصر . مصر : اتيراك للطباعة و النشر و التوزيع 2004، ص 106.

(14)- خليل أحمد، خليل . المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع . ط1 ، بيروت: دار الحداثة ، 1984 ص 45.

(15) محمد د، عارف . المجتمع بنظرة وظيفية الوظيفة و أشكالها و إمكاناتها التصورية و المنهجية في دراسة المجتمع . القاهرة: المكتبة الأنجلومصرية ، 1982 ، ص 75.

(16)- Robert, Merton. Eléments de théorie et de méthode sociologique . paris , 1965 , p 213.

(17)-نقلا عن أحمد زايد، و آخرون . الأسرة و الطفولة: دراسات إجتماعية و أنثربولوجية . الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 52.

(18)- جمال، معتوق . مدخل إلى سوسيولوجيا العنف . القاهرة: دار الكتاب الحديث، 2012، ص 216.

(19)نقلا عن علي، عبد الرّزاق جلبي . أسس علم الاجتماع . الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية 2003، ص 234.

(20)- نفس المرجع ، ص 236 .

(21)- Barrington, Moore. Les origines sociales de la dictature et de la démocratie. Paris : 1969, p 68.

(22)- نقلا عن إجلال، إسماعيل . العنف الأسري . القاهرة: دار قباء للطباعة و النشر، 1999، ص 28.

(23)- نقلا عن نفس المرجع، ص ص 25- 26.

(24)- حسن، محمد د حسن . العنف الأسري . الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2000، ص 452.

(25)- George, Perrin. Psychanalyse et criminologie. Paris : Bords, p 2425

(26)- السيد، عوض جرائم العنف الأسري بين الرّيف و الحضر . القاهرة: المطبعة العمرانية للأست 2004 ، ص 15.

(27)- Alfred, Adller. Le tempérament nerveux. Paris : Ed payot, p 131.

(28) - Charles, Zastrow. Social problems. u.s.a : Nelson hall Inc , 1997 , p 455.

(29) نقلا عن السيد عوض . مرجع سابق ، ص 15.

(30)- Edgar, Morin. Pour sortir du 20 siècle. Paris :L'armathan, 1981, p110

(31)- Corsini, R.J. and.Auerbach, A.J Concise Encyclopedia of Psychology. New York, 1998, p23

(32) إبراهيم ، محمد د السدّ رخي السدّ لوك وبناء الشّدّ خصيّة تدراسات تربوية ونفسية . القاهرة : دار المعارف، 2002، ص 28.

(33)- نقلا عن أحمد، زايد و آخرون . العنف في الحياة اليومية في المجتمع المصري. القاهرة : المركز القومي للبحوث الاجتماعية و الجنائية ، 2002 ، ص 15.

(34)- أسعد، رزوق . موسوعة علم النفس، بيروت للمؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1977 ص 206.

(35)- طه عبد العظيم ،حسين . سيكولوجية العنف: المفهوم، النظريّة، العلاج الريّاض: دار الصولتية للنشر والتوزيع، 2008، ص 81.